2

حكاية
البط الدميم

عندما ننصت إلى صوت الشغف بداخلنا

فإننا نصل لطبيعة البجع في كل منا

obeikandl.com

obeikandl.com

«كان في الريف المشهد رائعًا؛ حل الصيف، بسنابل القمح المشوقة الصفراء، والشوفان الأخضر، وحزم النجيل المرصوصة في المرج الأخضر». هكذا تبدأ قصة البط الدميم في جو ريفي رائع، وكذلك تنتهي في جنة جبلية خضراء بديعة. ولكن بين المشهدين الخلابين حكاية إقصاء ومجالدة، وشغف وتعلم حتى إدراك صورة ذاتنا الحقيقة.

رحلة البطل هي موضوع حكايتنا الحاضر في كل ثقافة وكل عصر. يعيش البط الدميم طفولة بائسة، يتملكه الإحباط في كل مراحل القصة، مما يثير دهشة عظيمة عندما تكشف المواقف ما لديه من همة وعزم. في أول الأمر نسمع صوت غريزة البقاء عنده ترفض سوء المعاملة. ثم نرى هويته الأصيلة تؤكد نفسها وترفض «الامتثال». وأخيراً تعبّر طبيعة البجع داخله عن نفسها عندما يقول «نعم» لإمكاناته الشخصية.

وبينما تقرأ الملخص التالي، أو القصة الكاملة إن شئت، أدعوك للتفكير في الأسئلة التالية: بماذا توحي لك القصة؟ ما الذي يحبطك فيها؟ ما الشيء الذي تتوق إليه؟

obeikandl.com

ملخص الحكاية

ذات يوم من أيام الصيف وبالقرب من خندق مائي يحيط بقصر أحد الحكام. كانت البطة الأم تراقب بيضها وهو يفقس واحدة بعد الأخرى إلا واحدة كانت كبيرة على نحو غير معتاد في بيض البط. أكدت بطة عجوز أنها بيضة دجاجة رومية وحذرت الأم من أن الِفراخ الرومية تخاف الماء. وعندما فقست البيضة، خرج منها صوصٌ كبير دميم يتعثر. خشيت الأم أن يكون صوصاً رومياً حقاً فقالت في نفسها «لابد أن أصطحبه إلى الماء حتى لو اضطررت لدفعه فيه».

قادت الأم فراخها إلى الماء، وفي الحال قفزت الواحدة بعد الأخرى وطفت جميعًا على سطحه ببراعة ومن بينهم الصوص الدميم. فقالت الأم في نفسها: «أبداً، ليس هذا بصوص رومي، بل هو ابني».

وعندما تجمعوا في ساحة البط أخذت الفراخ جميعاً تضايق الصوص الدميم لأنه كان مختلفاً جداً عنها. كان البط الكبير يعضه والدجاج ينقره، حتى الفتاة التي كانت تطعمهم كانت تركله. وكان إخوته وأخواته يقولون إنهم يتمنون لو خطفته الهرة، حتى إن الأم نفسها تمنت أن يرحل هذا الصوص الدميم. فتملكه اليأس وطار فوق السور وفر إلى المستنقع.

obeikandl.com

وفي تلك البرية قابل الصوص بعض الإوز البري الودود. ولكن سرعان ما بدأ الصيد، أصاب الرصاص الإوز، وصارت البحيرة حمراء من لون الدماء، وجاء كلب مخيف أثار ماء المستنقع ليمسك لصاحبه بالإوز الميت، فتملك الصوص رعب لا حد له.

وفي الليل هرب من المستنقع حتى أتى مزرعة رقيقة الحال تعيش فيها امرأة عجوز ومعها هر ودجاجة. كان الهر سيد البيت والدجاجة سيدته. وكان لكل منهما رأيه في كل شيء. ظن أن من حقه أن يرى خلاف ما يرون، لكنهما رفضا ذلك رفضًا قاطعًا. كان الصوص آمنًا في الركن الذي يؤويه، لكنه كان يتوق إلى الخروج وإلى الماء، فأفضى للدجاجة بسره. لكنها أكدت أن الكسل هو مصدر هذه الأفكار السخيفة، ونصحته بأن يجد ما يشغله. إلا أن شغفه استمر وازداد، وكان رأي الدجاجة أن الصوص أصبح لا يطاق. وسألته إن كان يظن أن الهر أو الدجاجة أو المرأة العجوز يحبون أن يخوضوا في الماء، وقالت له إن فكرته ليس بها أي مسحة عقل. صاح الفرخ: «لكنك لا تفهمينني!» ثم انطلق إلى العالم الرحب.

كان الصوص بطبيعته يحب السباحة والغطس في الماء، لكن المخلوقات الأخرى استمرت في إقصائه. وفي إحدى أمسيات الخريف، شاهد الصوص سربًا من الطيور البيضاء الجميلة ذات أعناق طويلة رشيقة: طيور البجع. نشرت تلك الطيور الرائعة أجنحتها وطارت نحو مناطق أكثر دفئاً. شعر الصوص بارتباط غريب بها، وعلى رغم من أنها اختفت سريعًا عن نظره، إلاّ أنه لم ينس قط تلك المخلوقات المذهلة.

obeikandi.com

حل الشتاء، وكان الصوص المسكين مضطرًا للسباحة في أنحاء متفرقة حتى لا يتجمد سطح الماء كله. لكنه في النهاية أصابه التعب وعلق في الثلج. ولحسن حظه رآه مزارع وأنقذه.

وأخيراً أقبل الربيع، واختبر الصوص جناحيه فأحدثا دويًا وهما يحملانه إلى حديقة جميلة. وعندما هبط على الماء رأى الطيور الجميلة مرة أخرى، لكنها كانت قادمة نحوه هذه المرة وريشها منفوش، فخاف أن يركلوه ركلة فيها موته بسبب شكله الدميم. استسلم الصوص لقدره، وانحنى برأسه نحو سطح الماء الساكن، وفجأة رأى انعكاس صورته ـ كان هو نفسه ذكر بجع.

obeikandl.com

هل تعلم...؟

هل كنت تعلم... في نوفمبر 1843 نشر هـ. ك. أندرسون مجموعة من الحكايات ضمت «البط الدميم» و «العندليب»، وللمرة الأولى حذف المؤلف عبارة «قصص للأطفال» من صفحة العنوان، فقد أدرك حينها أنه يكتب للأطفال والكبار معًا؛ فأحداث الحكاية تمتع الأطفال وما وراءها من أفكار موجهة لعقول الكبار. وبصدور تلك المجموعة وصل هـ. ك. أندرسون أخيرًا إلى النجاح الأدبي والتجاري.

قصة البط الدميم هي الأقرب لحياة الرجل من بين أعماله. و يرى المتخصصون علاقة وثيقة بين كل من مزاجه ومشاعره في هذه الحكاية وخطاباته الشخصية ويومياته. من ذلك دراسة هـ. توبسو جونسون التي تجد ملامح كثيرة مشتركة بين القصة وتلك المنشورات؛ فالكاتب كان حاله من حال البط «فقيرًا، عالة على المحسنين الذين لم يفهمه منهم أحد، معذبًا ومهانًا يعاني مشاعر الدونية، وهو يتحمل أوقاتاً صعبة طويلة، يزيد من صعوبتها ارتيابه في قيمته الشخصية. ولكن الرجل في أعماقه كان مؤمناً بأن ساعة الحصاد قادمة».

كبطل هذه الحكاية، كان هـ. ك. أندرسون ينزع إلى الشفقة على الذات وتضخيم الألم الشخصي. ولكنه كان أيضاً شجاعاً شجاعة مبهرة. ويمكن تفسير هذا النزوع بأن طفولة أندرسون

obeikandi.com

كانت أبعد ما تكون عن الرومانسية؛ إذ كانت أسرته معدمة ولا تتمتع بالاحترام. لم يكن والداه متزوجين قبل ميلاده، ودخلت جدته السجن لأنها أنجبت عدداً كبيراً من الأطفال غير الشرعيين، وكان جده نزيل مستشفى الأمراض العقلية، وأخته غير الشقيقة غير الشرعية تعمل في بيت دعارة. وكان أندرسون نفسه صبيًا دميمًا مخنث المظهر أو السلوك، كانت قدماه كبيرتين جداً وساقاه طويلتين جداً وعيناه ضيقتين جداً. ولكن موهبة هـ. ك. أندرسون أوصلته إلى كوبنهاغن، وأكسبته الرعاية الملكية، حتى صار واحداً من أقرب الأدباء في العالم إلى قلوب القراء.

obeikandl.com

الحكاية الكلاسيكية

كان المشهد رائعًا في الريف. حل الصيف بسنابل القمح المشوقة الصفراء، والشوفان الأخضر، وحزم البرسيم المرصوصة في المرج الأخضر. وطائر اللقلق يمشي على ساقيه الطويلتين، يغمغم باللغة المصرية، إذ كانت هي اللغة التي تعلمها من أمه. كانت الحقول والمروج محاطة بغابات فسيحة، وفي وسط الغابات كانت هناك بحيرات عميقة. نعم، كان كل شيء رائعاً هناك في الريف.

كانت الشمس تغمر قصرًا قديمًا حوله خندق مائي عميق. وقد نمت نباتات ذات أوراق كبيرة من أعلى السور حتى سطح الماء. وكانت تلك النباتات طويلة بقدر يسمح لطفل صغير أن يقف تحت أكبرها منتصبًا. كان النبات كثيفًا في هذا المكان كأشد ما يكون في الغابة. وهنا كانت ترقد بطة على بيضها في انتظار أن يفقس، لكنها بدأت تمل من طول المدة وقلة الصحبة؛ فالبطات الأخريات كن يفضلن السباحة في الخندق المائي على الذهاب إليها والجلوس للدردشة معها تحت النباتات.

وأخيراً أخذ البيض يفقس واحدة تلو الأخرى، «تك، تك»، دبت الحياة في صفار البيض كله وخرج رأس صغير من كل قشرة.

صاحت البطة «كواك، كواك» وانطلقت الأفراخ بأسرع ما تستطيع، تنظر جميعًا حولها تحت الأوراق الخضراء. وتركتهم أمهم ينظرون كما

يحلو لهم؛ لأن اللون الأخضر مفيد للعيون. قالت الفراخ جميعًا: «يا الله! يا له من عالم كبير!» فقد كان المكان أوسع كثيرًا من قلب البيضة الذي كانوا يرقدون فيه.

قالت البطة الأم: «أتظنون أن هذا هو العالم كله؟! لا، لأنه يمتد بعيدًا وراء هذه الحديقة وحتى حقل القسيس، بالرغم من أنني لم أذهب إلى هناك قط». والآن أظن أنكم جميعًا موجودون. ثم وقفت قائلة: «لا. ما زال العدد ناقصًا. البيضة الكبيرة لا تزال هنا تحتي. فكم سنحتاج من الوقت»؟ لقد بدأت أملّ منها. قالت ذلك ثم عادت للرقاد على البيضة.

جاءت بطة عجوز لزيارتها وسألتها : «كيف تسير الأمور؟» قالت البطة الراقدة: «هذه البيضة تحتاج وقتًا طويلاً، ولكن تفضلي لتشاهدي الأفراخ. فهن أجمل ما رأيت من فِراخ، كلهم يشبهون أباهم، ذلك النذل الذي لا يأتي ليطمئن عليّ».

قالت البطة العجوز: «اسمحي لي أن أرى البيضة التي لم تفقس، فما أظن إلا أنها بيضة دجاجة رومية، وقد انخدعت في واحدة منها قبلك، وحزنت كثيرًا بسببها؛ لأن الفراخ الرومية تخشى الماء، وعجزت أن أنزلها الماء وصرخت حتى بح صوتي بلا طائل. دعيني أر تلك البيضة! أجل، إنها بيضة دجاجة رومية! اتركيها وعلمي صغارك الآخرين السباحة».

قالت البطة الأم: «بل سأرقد عليها مدة أطول. فلقد رقدت عليها طويلاً، ولا مانع من أن أرقد عليها حتى تفقس».

قالت البطة العجوز: «كما تحبين». ثم رحلت.

وأخيراً فقست البيضة الكبيرة وقال الصغير: «بيب، بيب» وهو يخرج من البيضة متعثرًا. كان كبيرًا وبشعًا، نظرت الأم إليه وقالت: «هذا الصوص الكبير إلى درجة مفزعة، ولا يشبه أياً من الفراخ الأخرى، ولا يمكن أن يكون فرخاً روميًا، لا يمكن. لكنني سأتحقق من ذلك سريعًا، سآخذه إلى الماء حتى لو اضطررت لدفعه إليه دفعًا».

كان الطقس في اليوم التالي رائعًا، والشمس تسطع على النباتات الخضراء، فاصطحبت البطة الأم أسرتها كلها ونزلت إلى الخندق المائي، ثم قفزت إلى الماء فتناثرت حولها قطراته. ونادت البطة: «كواك...كواك» فانزلقت فراخ البط واحدًا تلو الآخر، وعلا الماء رؤوسها ثم ظهروا سريعًا وطفوا جميعًا ببراعة. كانت أرجلهن تعمل تلقائيًا. ولم يمض وقت حتى كانوا جميعًا على سطح الماء، وكان الصوص الرمادي الدميم يسبح معهم.

قالت الأم: «أبداً، ليس هذا بصوص رومي»؛ فهو يستخدم رجليه ببراعة، ويتحرك برشاقة بالرغم من طوله. لا شك أنه ابني. والحق أنه وسيم عندما تمعن النظر فيه. كواك...كواك. والآن هيا معي، سآخذكم إلى العالم الحقيقي وأقدمكم إلى ساحة البط. ولكن لا تبتعدوا عني حتى لا يدوسكم أحد، واحذروا الهرة.

ثم وصلوا إلى ساحة البط. وكان المكان يعج بالفوضى؛ إذ كانت أسرتان تتعاركان على رأس ثعبان بحر، صار في النهاية من نصيب الهرة.

obeikandi.com

قالت البطة وهي تلعق منقارها رغبة في رأس ثعبان البحر: «انظروا! هكذا الدنيا». والآن استخدموا أرجلكم وأسرعوا إلى البطة الكبيرة وانحنوا لها؛ فهي أهم من في الساحة. وإن فيها عرقاً إسبانياً، وهذا ما يجعلها سمينة جدًا، ولاحظوا الخرقة الحمراء حول رجلها، فهذا شيء مميز للغاية؛ بل هي أعلى ما يمكن أن يحصل عليه أحد، وهو يعني الحرص على وجودها، وأنها تلقى احترام الحيوانات والبشر. والآن أسرعوا، ولا تضموا أرجلكم، فالبط المهذب يبعد رجليه الواحدة عن الأخرى، كما يفعل أبوه وأمه، هذا كل شيء. والآن، انحنوا وقولوا «كواك!»

فعل الجميع ذلك، لكن بقية البط حولهم قالوا بصوتٍ عالٍ: «انظروا! ها هي مجموعة أخرى قد جاءت! وكأننا قلة نحتاج للمزيد من البط». ثم «إخ إخ على شكل هذا الفرخ. لا يمكن أن نقبله». وفي الحال طارت بطة وعضته في رقبته.

قالت الأم: «اتركيه وشأنه! فهو لم يضايق أحداً». فردت البطة التي عضته: «نعم، لكنه أضخم من المعتاد وشكله غريب؛ لذا ينبغي أن يُضرب».

قالت البطة العجوز، ذات الخرقة حول رجلها: «فراخ هذه الأم جميلة كلها إلا واحدًا، هذا الصوص ليس جميلاً، أتمنى أن تغيره».

قالت البطة الأم: «هذا مستحيل يا سمو البطة الكبيرة، صحيح أنه ليس وسيمًا، لكنه لطيف الطباع وبارع في السباحة مثل الآخرين، إن لم يكن أشدهم براعة! وأظن أنه سيكون وسيمًا عندما يكبر، أو أنه

سيصبح أقل حجماً مع الزمن، فلقد مكث فترة أطول في البيضة، لذا فشكله هذا ليس الشكل الصحيح». ثم مسحت على رقبته وسوت ريشه، وقالت: «ثم إنه مجرد ذكر لا يهم جماله كثيرًا. وأظن أنه سيصير قويًا جداً، سيفعل، لا شك في ذلك».

قالت البطة العجوز: «الفراخ الأخرى جميلة. مرحباً بك بيننا، وإذا وجدت رأس ثعبان يجري فلا مانع من أن تحضريه لي».

واستقرت عائلة البطة في ساحة البط.

لكن الصوص المسكين الذي خرج آخرًا من البيضة، وكان دميمًا جدًا، كان يتعرض للعض والدفع والسخرية من البط والدجاج جميعًا. كانوا يقولون عنه إنه «أكبر من المعتاد». وحتى الديك الرومي، الذي ولد بأشواك في رجله، مما جعله يظن أنه إمبراطور، وكان ينفخ نفسه مثل سفينة منشور شراعها، ذهب إلى الصوص ورفع صوته بالكركرة وحمّر وجهه، فلم يدرِ الصوص المسكين أيبقى أم يجري. كان تعيسًا لأنه يشعر بالدمامة، وكان موضع سخرية كل من في ساحة البط.

هكذا صارت أحداث اليوم الأول، وبعده ازداد الأمر سوءًا. صارت كل الحيوانات تطارد الصوص المسكين، حتى إخوته وأخواته، كانوا يسيئون إليه، وكانوا يقولون له دائمًا: «يا ليت الهرة تخطفك أيها الوحش الدميم». وكانت أمه تقول: «ليتك ترحل بعيدًا». كان البط يعضه، والدجاج ينقره، والفتاة التي تطعم الحيوانات تركله.

obeikandl.com

وفي النهاية، جرى الصوص وطار من فوق السور، وفزعت الطيور الصغيرة القاطنة في أعشاشها وطارت بعيدًا. فقال الصوص في نفسه: «هذا لأني بشع المنظر». ثم أغلق عينيه، لكنه واصل الجري، حتى بلغ المستنقع الكبير الذي يسكنه البط البري. ورقد هناك طوال الليل؛ فقد كان منهكًا ويشعر بحزن بالغ.

وفي الصباح طار فوق المستنقع بعض البط البري، فرمقوا القادم الجديد وسألوه: «أي المخلوقات أنت؟!» استدار الصوص على كل جانب وحياهم بأحسن ما يستطيع. قال البط البري: «أنت دميم جدًا! لكن ذلك لا يهمنا مادمت لن تتزوج من أسرتنا». لم يكن هذا الصوص المسكين يفكر في الزواج، فهو بالكاد تجرأ على النوم وسط أعواد القصب، وشرب القليل من ماء المستنقع.

مكث الفرخ يومين كاملين في هذا المكان. ثم أتت إوزتان بريتان ـ أو بالأحرى إوزان ـ إذ كانا ذكرين. ولم يكن قد مضى وقت طويل على خروجهما من البيض، فكانا مفعمين بالحيوية.

قالا له: «اسمع يا صديق! أنت بشع لدرجة جعلتنا نحبك. هل تود أن تأتي معنا وتصير طيرًا مهاجرًا؟ فبالقرب من هنا مستنقع آخر به بعض إناث الإوز اللطيفات الجميلات وكلهن عذارى يقلن «كواك»، وربما حالفك الحظ معهن، بالرغم من بشاعتك».

في تلك اللحظة سُمعت أصوات فرقعة «بانج، بانج» فوقهم تمامًا، فسقط ذكرا الإوز صريعين بين أعواد القصب، وصار الماء أكثر احمراراً من لون الدم. وانطلق الصوت مرة أخرى «بانج، بانج» فطار

الإوز البري كله من بين الأعواد ثم زادت الطلقات؛ فقد كانت رحلة صيد كبيرة. كان الصيادون يرقدون في أماكن مختلفة من المستنقع. بل إن بعضهم كان يربض فوق فروع الأشجار التي تعلو أعواد القصب جميعًا. كان الدخان الأزرق يمر كالسحاب بين الأشجار الداكنة حتى تجمّع فوق الماء. جاءت كلاب الصيد وسط الوحل تثير الماء، وتدفع أعواد القصب للأمام وللخلف. وكان ذلك مفزعًا للصوص الصغير الذي أخفى رأسه تحت جناحه، وفي تلك اللحظة ظهر أمامه كلب ضخم بدرجة مخيفة، كان لسانه يتدلى من فمه وعيناه تلمعان بصورة تثير الرعب، ثم تناثر الماء وجرى الكلب دون أن يأخذ الفرخ.

تنهد الصوص وقال: «يا إلهي! أنا مقزز جدًا لدرجة أن الكلب نفسه يعاف أن يعضني». ثم رقد بلا حراك بينما الطلقات تدوي بين أعواد القصب، وهي تنطلق واحدة تلو الأخرى.

لم يهدأ الجو حتى آخر النهار، ولم يجرؤ الصوص المسكين على النهوض، فانتظر ساعات عديدة بعدها قبل أن يتلفت حوله، ثم اندفع خارجًا من المستنقع بأسرع ما يستطيع عابرًا الحقول والمروج، وكانت الرياح شديدة تعوق حركته.

وقبل حلول المساء وصل إلى بيت ريفي صغير فقير. كانت حالة البيت رثة لدرجة أن البيت نفسه لم يعرف على أي جانب سيسقط فظل واقفاً مكانه. وكانت الرياح تهب بقوة حول الصوص حتى إنه اضطر للجلوس على مؤخرته كي لا ينقلب، وأخذت شدة الريح تتزايد،

فساء الأمر. ثم لاحظ الصوص أن إحدى مفصلات باب البيت قد انخلعت فصار الباب معلقًا على نحو مائل بحيث يستطيع أن يدخل إلى غرفة المعيشة من خلال الفتحة، ففعل.

كان يسكن البيت امرأة عجوز وهرها ودجاجتها. كان الهر، الذي سمته سوني يستطيع أن يقوّس ظهره ويخرخر بصوت القط المكتوم. وكان يمكنه أيضًا أن يصدر شررًا من عينيه، ولكن ليفعل ذلك لابد من المسح على ظهره عكس اتجاه الشعر. أما الدجاجة فكانت رجلاها قصيرتين وقريبتين من الأرض جدًا، لذلك كانت تسمى «بالقزمة». وكانت تضع بيضًا كثيرًا، وتحبها العجوز كثيرًا وكأنها ابنتها.

وفي الصباح، لاحظا الغريب على الفور، وبدأ الهر يخرخر والدجاجة تقرقر.

قالت العجوز وهي تنظر حولها: «ما الأمر؟» فقد كانت ضعيفة البصر فظنت الصوص بطة سمينة ضلت طريقها، وقالت: «هذا صيد سعيد. الآن يمكن أن أحصل على بيض بط، إلا إن كان ذكرًا. لكن علينا أن نحاول».

وهكذا تم قبول الصوص على سبيل الاختبار لمدة ثلاثة أسابيع، لكن البيض لم يأت. كان الهر سيد البيت والدجاجة سيدته. وكانا دائمًا يقولان: «نحن والعالم». فقد كانا يعتقدان أنهما نصف العالم ـ بل نصفه الأفضل على الإطلاق. ظن الصوص أنه يستطيع أن يخالفهما الرأي، لكن الدجاجة ما كانت لتقبل ذلك.

سألته: «هل تبيض؟»

«لا!»

«إذن الأفضل لك ألا تفتح فمك».

وسأله الهر: «هل تستطيع أن تقوس ظهرك وتخرخر وتطلق الشرر؟»

«لا!»

«إذن ينبغي أن تحتفظ بآرائك لنفسك حين يتحدث الأذكياء».

قبع الصوص في الركن في حالة سيئة. وأخذ يستحضر في خياله الهواء المنعش وضوء الشمس، واجتاحته رغبة غريبة في الطفو على الماء. وفي النهاية، لم يستطع أن يكتم ذلك، وقرر أن يخبر الدجاجة بما في نفسه.

قالت له الدجاجة: «ماذا دهاك؟ كل ما في الأمر أنك لا تجد ما يشغلك. هذا ما يسمح لهذه الأفكار بأن تأتيك. ضع بيضاً أو كركر، وسيزول هذا كله».

قال الفرخ: «لكن الطفو على الماء أمر رائع. فكم هو جميل أن تدخلي رأسك في الماء وتغطسي حتى القاع».

«يا سلام!؟ أي متعة عظيمة في ذلك؟ لابد أنك قد جننت. لم لا تسأل الهر؟ وهو أحكم من أعرف، إذا كان يحب الطفو على الماء أو الغوص فيه. ولن أتحدث عن رأيي. بل سل صاحبتنا العجوز، إذ لا

يوجد من هو أحكم منها في الدنيا كلها، هل تظن أنها تحب الطفو على الماء، أو تحب أن يعلو الماء رأسها؟»

قال الفرخ: «أنت لا تفهمينني».

«حسنًا، إن لم نفهمك نحن فمن يستطيع؟ هل تظن أنك أعقل من الهر والعجوز، فضلاً عني! لا تثر جلبة أيها الصغير، واشكر ربك على كل ما أسديناه إليك من معروف. ألم تأوِ إلى غرفة دافئة وسط أناس يمكن أن تتعلم منهم شيئاً؟ أنت أحمق وصحبتك لا تجلب السعادة. صدقني أنا أقول لك الحقيقة القاسية من أجل صالحك، وهكذا يعرف الصديق الحق! والآن ما عليك إلا أن تبدأ بوضع البيض، أو تتعلم الكركرة أو إطلاق الشرر».

قال الفرخ: «بل أظن أنني سأخرج إلى العالم الواسع».

قالت الدجاجة: «هيا، افعل ذلك».

وهكذا خرج الصوص إلى العالم الواسع وطفا على الماء وغطس فيه. لكن كانت الحيوانات جميعًا لا تزال تتجاهله بسبب بشاعته.

جاء الخريف. وتحولت أوراق أشجار الغابة إلى الذهبي والبني، وكانت الرياح تهزها حتى جعلتها ترقص في كل اتجاه. بدا الهواء باردًا والسماء ملبدة بالثلج والبَرَد، لدرجة جعلت غرابًا كان يجلس على السور يصيح «آي، آي» من فرط البرد. نعم، إن مجرد التفكير في ذلك الطقس ربما يصيب الواحد بالتجمد. لم يكن الصوص الصغير المسكين مرتاحًا بأي حال من الأحوال.

وذات مساء، والشمس تغرب في جمال غامر، خرج سرب كبير من الطيور الكبيرة الجميلة من بين الشجيرات، لم ير الصوص شيئاً في جمالها من قبل. كانت تلمع بياضًا ولها أعناق طويلة رشيقة، كانت طيور البجع. أطلقت صيحة غريبة ونشرت أجنحتها المهيبة لتطير من هذه المناطق الباردة إلى بلاد أكثر دفئاً وبحيرات غير متجمدة. ارتفعت تلك الطيور أعلى وأعلى، وتملك الصوص شعور غريب عجيب. فدار في الماء ومد عنقه إلى الأعلى نحوها، وأطلق فجأة صيحة عالية جداً وغريبة جداً حتى إنه هو نفسه فزع منها.

لم يستطع أن ينسى قط تلك الطيور الجميلة، تلك الطيور السعيدة. وعندما غابت عن نظره غطس إلى قاع الماء، وعندما صعد مرة أخرى، كان في حيرة شديدة. لم يكن يعرف اسم تلك الطيور، ولا إلى أين تطير، لكنه أحبها بالرغم من ذلك، أحبها أكثر من أي شيء آخر. لم يكن يغار منها، ولم يخطر بباله قط أن يتمنى لنفسه مثل هذا الجمال. كان يرضيه أن يتسامح البط معه، كونه ذلك المخلوق المسكين البشع.

كان الشتاء باردًا، بل شديد البرودة. وكان على الصوص أن يسبح باستمرار حتى يمنع تجمد الحفرة التي يسبح فيها، لكن الحفرة كانت تضيق كل ليلة، وكان الصقيع المتجمد سميكًا للغاية، لدرجة أنه كان يصدر صوت طقطقة. كان الصوص مضطرًا لتحريك رجليه طوال الوقت ليمنع تجمد الحفرة تمامًا. وفي النهاية، تملكه التعب حتى سكن، ثم تجمد سريعًا وسط الثلوج.

وفي الصباح الباكر مر مزارع ورأى الصوص وأقبل عليه وكسر الثلج حوله بحذائه الخشبي، ثم حمله معه إلى بيته حيث توجد زوجته، وهناك عادت له الحياة.

كان الأطفال يريدون اللعب معه، لكن الصوص ظن أنهم يريدون إيذاءه، فاندفع نحو وعاء اللبن حتى سكبه وتطاير رذاذه في الغرفة. صرخت الزوجة ولوحت بذراعيها في الهواء، فطار الصوص إلى وعاء الزبد ثم إلى برميل الدقيق مرة ومرة. كان منظره غريبًا، صرخت الزوجة وحاولت أن تضربه بملقاط المدفأة، واصطدم الأطفال بعضهم ببعض وهم يحاولون الإمساك بالصوص وهم يضحكون ويصرخون. ولحسن الحظ كان الباب مفتوحًا، فاستطاع الصوص أن يندفع خارجًا بين الشجيرات التي تغطيها الثلوج المتساقطة، ورقد الصوص هناك وكأنه في بيات شتوي.

مر الصوص بأخطار ونوبات يأس لو قصصتها لأصابتنا بقدر كبير من الاكتئاب. كان يرقد في المستنقع بين أعواد القصب حين بدأت الشمس تسطع دافئة وبدأت العصافير تغني. فقد عاد الربيع.

رفع الصوص جناحيه على الفور، فأحدثا حركة في الهواء أشد من ذي قبل، ثم حمله جناحاه بقوة إلى أعلى ثم إلى بعيد وسرعان ما وجد نفسه في حديقة كبيرة أزهرت أشجار التفاح فيها، وملأت أزهار الليلك جوها بالعطر الذي امتد حتى قنوات الماء الملتوية. كم كان الطقس رائعًا هنا، منعشاً كما ينبغي للربيع. خارج الحديقة، رأى أمامه

مباشرة ثلاثاً من البجع الأبيض الجميل تقبلن وقد نفشن ريشهن و طفون على سطح الماء بخفة كبيرة. عرف الصوص هذه الطيور الجميلة، وغمره إحساس غريب بالحزن.

«سأطير إليها، تلك الطيور الضخمة، أنا المخلوق البشع سأقترب منها، حتى لو مت من عضها. لن يهمني، فخير لي أن يقتلنني من أن يعضني البط وينقرني الدجاج و تركلني الفتاة التي ترعى حظيرة البط، ولن أقبل معاناة شتاء آخر». وطار إلى الماء، وسبح باتجاه البجع الرائع. فلما رأينه أسرعن نحوه بريشهن المنفوش، فقال المخلوق المسكين: «هيا اقتلوني!» وانحنى برأسه نحو سطح الماء ينتظر موته... لكن ماذا رأى على سطح الماء الصافي؟ رأى صورته فلم يعد ذلك الطائر الرمادي الأسود الدميم المقزز، بل كان هو نفسه بجعة.

«لا يهم إن كنت قد ولدت في حظيرة بط، فقد خرجت من بيضة بجعة».

شعر وقتها بالرضا عن كل المعاناة والعداوات التي تعرض لها، لأنه الآن يقدر حظه الطيب، وكل الجمال الذي كان في انتظاره. سبحت البجعات الكبيرة حوله ومسحن عليه بمناقيرهن.

جاء بعض الأطفال الصغار إلى الحديقة وألقوا فتات الخبز والحبوب في الماء، وصاح أصغرهم قائلاً: «هناك بجعة جديدة»، فصاح كل الأطفال فرحًا مرددين: «نعم، وصلت بجعة جديدة».

obeikandl.com

وصفقوا ورقصوا وجروا إلى أبيهم وأمهم، ثم ألقوا خبزًا وكعكًا في الماء، وقالوا جميعًا: «البجعة الجديدة هي أجملهن! صغيرة وذات جمال خلاب». انحنى البجع العجوز تحية له، فوضع رأسه تحت جناحه حياءً ولم يدرِ ماذا يفعل.

كانت السعادة تغمره! لكنه لم يتكبر؛ فالقلب الطيب لا يحمل كبرًا. تذكّر ما لاقاه من سخرية وسوء معاملة، وهو يسمع الجميع الآن يقولون إنه الأجمل بين كل الطيور الجميلة. انحنت له زهور الليلك حتى لمست فروعها سطح الماء، وسطعت الشمس بالنور والدفء. نفش ذكر البجع الجميل ريشه، ورفع عنقه الدقيق، وكانت السعادة تملأ قلبه، وقال: «لم أحلم قط بأن كل هذه السعادة ممكنة، عندما كنت الصوص الدميم».

obeikandl.com

تطبيقات الحكاية

لا يتوقف النجاح في الحياة على مهنة أو منصب يرنو إليه الجميع، بل يحقق الناس النجاح عندما يجدون مكانهم الطبيعي و ذواتهم الأصيلة. ومكاننا الطبيعي ليس بالضرورة وسط من نعمل أو نعيش معهم، بل مع من يشاركوننا ما نحب أو يشجعوننا عليه. وليس معنى التقدم في العمر أننا وجدنا ذواتنا الأصيلة. فالتوحد مع هذا الجوهر لا يحدث إلا بسقوط صور الذات المزيفة.

إن رحلة اكتشاف الذات رحلة متعبة، تأخذنا من حالات الاستقرار والاندماج، إلى حالات من الاضطراب والنمو الحاد المجهد، ثم إلى الاستقرار والاندماج في المستوى التالي. عندما يمر الأطفال في عمر السنتين، أو المراهقون بمرحلة عدم الاستقرار، نعتبر ذلك عاديًا ونصفهم في هذه المرحلة بأنهم «صعبو المراس»، أما عندما يمر الكبار بذلك فنقول إنهم متسيبون وغير مسؤولين. أما الوصول إلى رؤية أفضل لذواتنا وعملنا والعالم كله فيقتضي وضع مفهوم «التكيف» تحت الاختبار، أي أنه لابد من بعثرة بعض الريش.

الرؤية الأفضل للذات

البط الدميم غير متجانس مع محيطه. يتعرض للأذى لأنه مختلف للغاية وأكبر وأكثر بشاعة مما يطيق من حوله. مثلهم كمثل صوص الحكاية، يشعر كثير من الناس في مكان العمل بالتمييز ضدهم، لأنهم

obeikandl.com

غير متناغمين مع الصيغة السائدة، بسبب النوع أو العرق أو الدين أو التعليم أو المزاج. قد تكون الأحكام التي يصدرها عليهم مجتمعهم مؤذية لكن الضرر الحقيقي لا يحدث إلا عندما يتبنون تلك الآراء.

تجاهل الأصوات السلبية

لا عجب أن البط الدميم نمت داخله صورة للذات تستحق الرثاء. فعندما يفزع سرب من الطيور، يظن أنها طارت من فرط بشاعته وعندما لا يلتقطه كلب الصيد يرجع سبب ذلك إلى أنه «مقزز لدرجة أن الكلب نفسه يعاف أن يعضه». يشبه كثير منا هذا الفرخ؛ ففي داخلنا ناقد قاسٍ لا يتوقف عن تذكيرنا بنقائصنا وعن الحط من تقديرنا لذواتنا. ويعاني آخرون من نقيض هذه المشكلة ويحتاجون إلى من يوخز ذواتهم المتضخمة حتى يقاوموا حديث تعظيم الذات الداخلي. هذا الحديث الداخلي يمنعنا في الحالتين من التواصل مع طبيعتنا الأصيلة. ولابد من تجاهل هذه الأصوات السلبية حتى نتمكن من سماع صوتنا الحقيقي الفريد.

تأكيد الذات

بعد الهروب من سوء المعاملة في حظيرة البط، ومن العنف في المستنقع، وجد الصوص الأمان مع العجوز وهرها ودجاجتها. وعلى خلاف البطة الأم التي لم تتجاوز حد التكيف، كان الهر والدجاجة يريدان السيطرة. فهما عادة يبدأان حديثهما بعبارة «نحن والعالم» لأنهما يظنان أنهما نصف العالم بل «النصف الأفضل جدًا». وهما

هكذا يشبهان نوعاً من المديرين ممن يرون أنفسهم عقول الشركة، بل أفضل عقول فيها، أو يشبهان نوعاً من الزملاء متصلبي الرأي يشعرون أنهم أرقى من الإدارة مما يجعلهم يقاومون كل تغيير.

عندما تكور الصوص في أحد الأركان بدأ يحن للماء، ويتمنى لو يغطي به رأسه، ويغطس حتى قاعه. وتظن الدجاجة أن هذا الشغف شغف أجوف نتج عن الخمول، وتنصحه أن يجد ما يشغله. ولحسن الحظ يتجاهل الصوص نصيحة الدجاجة ويتبع شغفه.

في حياة أغلبنا دجاجة متسلطة. نراها بسهولة في أحد الوالدين أو في الأصهار أو في زوج أو صديق أو زميل أو مدير، لكننا غالباً لا ننتبه إلى صوت «لقلقتها» في رؤوسنا. فهي الصوت المسؤول، الواقعي الذي يصيح قائلاً: «لا ينبغي أن تلتفت إلى شغفك الآن، فهذا سيضر مستقبلك المهني»، «لا تفعل، فليس لديك الوقت»، «لا تفعل، فثمة آخرون يعتمدون عليك».

وعلى الرغم من أن أسلوبها الحاد يساعدنا على التعامل مع الأمور العملية، إلاّ إنه لا ينبغي أن نتركها تدير حياتنا؛ فإن فعلنا فسيزيد انشغالنا، ويضيق أفقنا بحيث نعجز عن التعلم وتصيبنا الشيخوخة قبل الأوان.

شبهت إليانور روزفلت ـ سيدة أمريكا الأولى من عام 1933 إلى عام 1945 طفولتها بطفولة البط الدميم. فقد تيتمت في العاشرة من عمرها وقام على تربيتها أقارب لها، وكان لديها شعور مزمن بالدونية والخوف. كانت نساء جيلها قد تربين على خدمة أزواجهن، وقد قبلت

obeikandl.com

ذلك بوصفه قدرها. كما أنها واجهت «دجاجة» مهيمنة هي «حماتها»، واستغرق الأمر أعواماً قبل أن تجرؤ إليانور الصغيرة على إعلان رأيها، حتى داخل أسرتها. ولكن بعد وقوع حدثين حاسمين ـ خيانة زوجها لها ثم إصابته بالشلل ـ بدأت تدافع عن نفسها بشراسة. فلما صارت السيدة الأولى، أثناء الكساد العظيم والحرب العالمية الثانية، كانت مستعدة للدخول في العالم الكبير. سافرت في أنحاء البلاد تستمع إلى المهمشين الذين لا صوت لهم. و صارت بمظهرها البسيط وكلامها البسيط صوتاً لمن لم يكن مسموحاً له بالكلام، ولاسيما النساء والأمريكيين الأفارقة. ولقد أصبحت إليانور واحدة من أحب الأمريكيين إلى الناس في زمنها، عندما نضجت ورأت البجعة التي بداخلها وتمثلتها.

إيجاد الذات

في الخريف، يرى الصوص صورة خاطفة لما يمكن أن يصير؛ وذلك عندما يرى سربًا من البجع المهيب يطير في الأعالي في بداية رحلة الهجرة. كانت رؤية تلك الطيور مربكة، ومطمئنة في الوقت ذاته، فقد عاش عليها طوال الشتاء القاسي.

وفي الربيع، يطير الصوص كامل النمو بضربات جناحيه القوية المدوية إلى حديقة جميلة. وهناك يندفع البجع الأبيض نحوه بريشه المنفوش، ويقترب المصير، يحني الصوص المفزوع رأسه نحو الماء الصافي، حيث يرى صورته الحقيقية أخيرًا. فهو نفسه بجعة. هذه هي لحظة التحول، حين تموت هويته الزائفة وتولد الأصيلة.

مواجهة العظمة فينا قد يكون أمرًا مفزعاً. فربما نشعر بالأمان عندما نرى شيئاً رائعًا من بعيد، لكننا نفزع عندما يأتي إلينا مباشرة ويقول: «هيا انضم إلينا». ربما نخشى ألا نطاول عظمته، أو أن نحرج أنفسنا، فيكون الأسهل أن نبتعد عن المخاطرة، فنتراجع. لكننا لن نرى جوهرنا الأصيل أبداً ما لم نجرؤ على الانضمام إلى من نعتبرهم «عظماء».

تطورت هوية الصوص الدميم خلال الحكاية، وكذلك لكل منا رحلة داخلية لابد أن يتمها. فهل تمر عليك أوقات تنظر حولك وتقول في نفسك: «ليس هذا مكاني؟» هل تتمسك برأيك في مواجهة الدجاج المتغطرس؟ إلى من تنجذب، ومع من تحب أن تقضي وقتك؟ وممن تحب أن تتعلم؟

رأي أفضل في العمل

«قال الفرخ: لكن الطفو على الماء شيء رائع جداً، ومن الممتع للغاية أن تجعل الماء فوق رأسك وتغطس حتى القاع».

يتشكل قدر كبير من هويتنا وتقديرنا للذات بما نفعله، وإن لم يكن الأمر كذلك دائماً. ففي زمن هـ. ك. أندرسون، كان الميلاد هو ما يحدد المكان الذي يمكن أن تعيش فيه، ونوع العمل الذي يمكن أن تتخذه، والزوج أو الزوجة التي يمكن أن تقترن به أو بها. وقد واجهت أنا نفسي بقايا من هذا البناء الفكري عندما قضيت وزوجي الصيف

الماضي في قرية جبلية إسبانية تنتمي إلى العصور الوسطى. كان أول سؤال وجه إليّ «من أي بيت أنتِ؟» وكانت هويتي أنني زوجة ابن أوغستين، وكان أوغستين ابن معلم المدرسة الأسبق. وبعد عودتي للولايات المتحدة ذهبت إلى منتجع بعيد، ولكن حتى في هذا المكان الباعث على التأمل كان السؤال الأول: «ما عملك؟» كان ذكر العمل طريقتنا في التعريف بأنفسنا. وكان التناقض مدهشاً. وقد ذكّرني ذلك بأن المجتمع القائم على السمات الشخصية يكون العمل فيه جزءًا حيويًا من هويتنا. وأستدعي هنا ديكارت مع التصرف فأقول: «أنا أعمل؛ إذن أنا موجود».

يستغرقنا العمل أحياناً، إذ نعشق ما نعمل، ونقدر من يعملون معنا. فنحن راضون. ولكن حتماً يحدث ما يعكر هذا السكون. فقد يكون أحداثاً خارجية، مثل تعيين مدير جديد أو تطبيق استراتيجية جديدة، أو إعادة تنظيم على نطاق واسع، وأحياناً أخرى تكون تغيرات داخلية؛ فربما استشعرنا ظهور تعارض بين ما يُطلب منا أن نفعله وما نؤمن به، وربما لم نعد نجد أنفسنا فيه، وقد نسمع أنفسنا نكثر من الحديث عما يضايقنا لا عما نحب، أو كأن نشعر في نهاية اليوم بالخواء أو الإحباط أو السخط أو الانزعاج أو التشتت أو عدم الرضا عن حياتنا. كان هذا هو شعور الصوص داخل جدران البيت القديم. لكننا غالبًا ما نتجاهل هذه الأعراض، ونتمنى أن تُحل مشكلتنا بمرور الزمن أو بالمزيد من العمل، فنعود مرتاحين كما كنا.

وأحياناً نخاف من أن يكون «الخروج للعالم الواسع» معناه أن نترك وظائفنا لنقوم بشيء مدهش. لكن الإقبال على العالم يعني تغيير أنفسنا أكثر مما يعني تغيير عملنا. ويؤكد جوناثان ينغ، وهو أحد المساعدين السابقين لعالم الميثولوجيا (علم الأساطير) جوزيف كامبل، أن ترك المرء عمله غالباً ما يكون الحل الأسهل. فقد كتب في رسالة إلكترونية حديثة «إن التمسك بالوظيفة الحالية والبحث عن سبيل لبعث حياة جديدة فيها لا يقل بطولة وإبداعاً مؤثرًا عن قرار ترك العمل».

يقدم العاملون في سوق السمك في بايك بلاس، في ولاية سياتل، مثالاً رائعًا على ما يقصده جوناثان ينغ. فمهنة «صيادي السمك لم تكن قط ضمن الخيارات العشرة الأولى لمعظم الناس». فالعمل شاق وبه من الروائح الكريهة واللزوجة والقذارة الشيء الكثير. ومع هذا يفخر صيادو السمك في بايك بلاس بعملهم كما يبين ذلك الفيلم التسجيلي «السمك».

بدأ الأمر بمدير قرر أن ينظر إلى موظفيه بوصفهم أناسًا لهم اهتماماتهم الشخصية وسألهم: «ما المطلوب منا إن أردنا أن نرتقي بمكان عملنا؟». قال أحد صيايدي السمك الشباب: «لماذا لا نحقق شهرة عالمية مادمنا سنقضي كل عمرنا هنا؟» استبعد الآخرون الاقتراح في البداية، ولكن شيئاً فشيئاً بدأت المجموعة تتحدث عن طريقة تعاملهم مع بعضهم البعض إن هم صاروا صيادي سمك مشهورين عالمياً، وكيف سيتعاملون مع زبائنهم. وبينما استمروا في وصف كيفية التصرف لو أصبحوا مشهورين عالمياً؛ صاروا بالفعل مشهورين عالميًا.

يقدم هؤلاء الصيادون اليوم تجربة ذات فوائد استثنائية و بها من المتعة الشيء الكثير حتى إن هذا السوق صار واحداً من مزارات سياتل السياحية المهمة. وآتى ذلك التحول ثماره من المنظور التجاري، فما كان يعتبره العاملون عائداً طيبًا لأسبوع كامل من العمل، صاروا يحققونه في صباح أول أيام الأسبوع، دون أي زيادة في المساحة أو طاقم العمل. يبين لنا هؤلاء الصيادون أننا يمكن أن ننفث حياة جديدة في عملنا القديم إن غيرنا أنفسنا.

وبينما أبدي إعجابي بأناس مثل هؤلاء السمّاكين، فإن نسق حياتي المهنية يقول إنني أميل إلى اتخاذ الطريق السهلة أي أن أترك العمل إلى غيره. فثمة «وخزة في القلب» كانت تقلقني وتؤرقني، فكنت دائماً مستعدة للخروج إلى العالم الواسع. لكنني ـ على نقيض الصوص ـ لم أكن أعرف أين أذهب: ففي مهنتي الأولى، العلاج الطبيعي، أتذكر الشعور بعدم الانتماء، حتى إنني تحدثت مع زميلة عن رغبتي في أن أعمل شيئاً ذا قيمة؛ فقالت: «ميتي، أنتِ تجعلين العرجى يمشون! فأي قيمة أكبر من ذلك تطلبينها لعملك؟» كانت محقة في أن العلاج الطبيعي عمل «جيد»، لكنه لم يكن عملي أنا. وبعد عدة منعطفات، أدركت أخيرًا أن عملي الحق هو مساعدة الناس على أن ينهلوا من جوهرهم الأصيل حتى يصلوا إلى أداء عظيم في عملهم، أن أساعد الناس على أن يكونوا أحياء بحق في أعمالهم.

ولأني بالغت في قراءة كتب مساعدة الذات، فقد أبطأت في اقتناء كتاب ستيفن ر. كوفي «العادات السبع للناس الأكثر تأثيرًا». ولكن عندما قرأته، اكتشفت إطارًا للتنمية الشخصية يلهب الخيال ويمس أساسيات الحياة وعملي في آنٍ واحدٍ. تأثرت بالكتاب حتى التحقت بمركز كوفي لإعداد القادة، ووجدت نفسي أسبح مع مئات البجع الذين يشاركونني شغفي بالقيادة. كانت القوة وكان الدّوي الذي أثارته أجنحتنا عندما انطلقنا بداية لحركة جماعية ضخمة نحو هذا المجال. ولكن، كما يحدث دائماً، تغيرت الأمور. وفي حالتنا هذه، واجهت الشركة تغيرات في أحوال السوق وتوقعات المستهلكين، فاستجابت للاندماج مع شركة أخرى وقيادة جديدة، واستراتيجيات جديدة ومحتوى جديد. ومع الوقت تباينت اهتمامات الشركة مع اهتماماتي، فلم يكن هناك بد من أن أترك تلك الحديقة الغنّاء حتى أنشئ المحتوى الذي يناسبني، لكنني لا زلت أذكر بسعادة ساعات السباحة مع البجع.

سواء سعينا إلى إعادة تشكيل مكان عملنا الحالي أم تركناه، فإن اكتساب المزيد من الأصالة والصدق يبقى الأمر الصعب. فعندما قال جوزيف كامبل «ابحث عن سبيل سعادتك» لم يكن يقصد «ابحث عن أوقات ممتعة تقضيها»، بل كان يقول: «اصغِ للصوت الخافت الثابت ـ ذلك النداء الذي لا يخطئ اسمك». ينطوي تنفيذ ذلك على مخاطرة، لأن ذلك الهمس لن يهدينا إلى طريق مهني واضح المعالم، بل سيطلب منا أن نصنع ذلك الطريق بأنفسنا.

عندما لا تكون راضيًا عن عملك، هل تنزع إلى الشكوى وتتمنى لو عادت الأمور إلى وضعها «السوي»؟ هل تنزع لأن تكون مبدعًا إبداعاً مذهلاً" فيما بين يديك؟ هل تخرج إلى العالم الواسع فعلاً؟

رؤية أوسع للعالم

«وعلى الفور رفع جناحيه، فأثارا حركة في الهواء أشد من ذي قبل، ثم حملاه بقوة إلى أعلى ثم بعيداً».

منحنا العصر الحديث ذهنية هندسية نرى بها الحياة. فإذا كانت الحياة نهراً متدفقاً، فما كنا لنسعد بصوت مياهه المرتفع أو بقوة اندفاعه، وإنما سنعتبر ذلك موردًا مهدوراً. وعليه، سنبني سدًا لنستأنس هذه الشراسة، ومحطة كهرباء بدفع الماء لنستغل طاقته. صحيح أننا جنينا فوائد عديدة من هذا المذهب في الحياة، فقد دفعنا ثمنه دون أن ندري. فعندما نتعامل مع الطبيعة، والناس، ومع أنفسنا بوصفنا وسيلة إنتاج، نبتعد عن الحياة وننفصل عنها.

على العكس من ذلك، إن نظرة أرحب ستجعلنا نرى أن للحياة مقاصدها الأصيلة، كما رأى المدير في فيلم «السمك» أن عماله لهم رغباتهم الشخصية. وعندما نقبل على الحياة باهتمام بها لا بذواتنا، عندها سنكون أقرب إليها وأشد ارتباطًا وانشغالاً بها. وعندما نكون في بيئتنا الطبيعية فإن ارتباطنا يكون عميقاً، ليس بجوانب الحياة المبهجة بل وبجوانبها المفزعة أيضاً. كان الماء هو البيئة الطبيعية للبط الدميم، يزداد حياة عندما يغطس وينثر الماء، ولكنه أيضاً يفزع عندما

يصيـر لـون الماء أحـمـر قـانيـاً، وعندمـا يعلق في سطحـه الذي صـاد جليـدًا. أمـا نحن البشـر، فقـد تكون بيئتنا الطبيعيـة عـالـم الشعـر أو الفيـزياء أو رعاية الأبناء أو العمل الشـرطي، أو أي عمل يربطنا بما هو إنساني لا يتغير.

عندما نغطس في بيئتنا الطبيعيـة، البحيرة التي ننتمي إليها، يمكن أن نتعلم خمسة دروس هامة:

1. إننـا نمتلك القـدرة. عنـدمـا رأت البطة الأم المخلوق غـريب المنظر، خشيت أن يكون فرخاً رومياً. وحتى تختبره، أنزلت كل أفراخها إلى الماء، ولحسن الحظ سـبح الصوص الدمـيم على الفـور وببـراعـة. فقالت: أبدًا، ليس فرخاً روميًا. فها هو يستخدم رجليه برشاقة، وبرشاقة يتحرك مع طوله.«لا شك أنه ابنـي».

عندما نكون في بيئتنا الطبيعيـة نكون أقوياء. وحتى يكون لعملنا معنى، لسنا مضطرين للقيام بمهام تصحيحية أو أعمـال «طيبـة»، بل يكفي أن نحسن ما يخصنا من عمل. لذلك فمن الضروري أن نعمل شيـئًا لنا به اهتمـام أصيل. فـإذا كنا مـرتبطين به على هذا النحـو فسنبلغ حداً مدهشاً، بل استثنائياً، من الكفاءة.

2. نحن معرضون للمخاطر. بعـد أن طار فوق السور، اختبـأ الصوص في المسـتنقع ورقـد في هدوء. اقـتـربت منه إوزتان ودودتـان، ولكن بدأت عـمليـة الصيد فجـأة، وقتلت الإوزتان و «صار الماء أحـمـر من

لون الدم» والأسوأ من ذلك أن جاء كلب صيد مخيف ينطلق وسط أعواد القصب، فكاد الصوص يموت فزعًا. الحياة في البرية لها مخاطرها.

عندما نهتم بشيء اهتماماً صادقاً، فإننا نفتح على أنفسنا باباً للألم فمن يحبون اللغة تؤلمهم التعبيرات المستهلكة التي يجدها غيرهم ذكية. ومن يهتمون بالعدل تؤلمهم المظالم التي لا يكاد يلاحظها غيرهم. فلا مناعة تُعطى لمن يجرؤ على الارتباط بشيء ما بكل كيانه.

3. نحن أحياء حقاً. بعد أن تجاوز الصوص الحقل، وجد الأمان مع الهر والدجاجة اللذين انتظرا منه أن يخضع لرأيهما الأرقى من رأيه. لكن الصوص الآن يبدي درجة مدهشة من الشجاعة؛ فلا الإحساس بالذنب يخضعه، ولا سلوكهما الاستعلائي يرهبه، ولا منطق الدجاجة يقنعه؛ فالصوص يدرك أن للقلب أسبابه الخاصة.

لا يود معظمنا أن يبدو «صعب المراس» أو غير عقلاني، لذلك نتوافق مع الثقافة السائدة. ولكن عندما نتجاهل شغفنا تفتر همتنا. كنت منذ عامين في حالة فزع، ثم سمعت الشاعر المعاصر ديفيد وايت يقول «كل ما عليك أن تقوله هو لماذا بالتحديد لا تشعر بالانتماء وأنت في الطريق إلى بيتك». وفجأة انفتحت الأبواب ليندفع فيضان من الإحباطات المحجوزة مني تجاه الحاسوب. وعندما راجعت ما كتبت، بعد ذلك، رأيت أن كل تعليق كان يخفي حاجة معينة أو رغبة أو حلماً للمستقبل. وقد ساعدني هذا التفكير فيما بعد عندما قررت أن أتبع شغفي وأن أواجه دجاجتي الداخلية.

obeikandi.com

4. يمكن أن نعلّق. واجه الصوص في البرية شتاءً قاسياً، كان الصقيع كثيفاً إلى حد أنه كان مضطرًا لاستخدام رجليه طوال الوقت حتى يبقي بركة السباحة مفتوحة، «وفي النهاية تملكه التعب حتى سكن ثم تجمد سريعًا وسط الثلج».

حتى في بيئتنا الطبيعية قد نحمل أكثر مما نطيق، ونكون في حركة دائبة، وفي حيز أكبر منا كثيرًا، ويحاصرنا نجاحنا. فإحساس الفرد بأنه لا يملك الوقت الذي يتيح له أن يكون «صعب المراس» يجعله يتجمد في تطوره. عندها نحتاج لمن يخرجنا من هذا الحصار، قد يساعدنا في ذلك كتاب نقرأه أو محادثة طويلة مع صديق؛ فيسري الدفء في قلوبنا ونستطيع أن نكسر النمط الذي علقنا به.

5. نحن ننتمي. رؤية الصوص للبجعات عن قرب تلهمه وتربكه في آن واحد. وفي الربيع لا يملك إلا أن يقترب من البجع، ويصيبه الفزع عندما يندفعن نحوه. والنهاية، في لحظة انكشاف الحقيقة، يرى صورته ويدرك حقيقة جوهره. ويعرف إلى من ينتمي

يشعر المرء بالانتماء عندما يعمل ما يحب أن يعمل. فنحن ننتمي عندما نعمل مع من يشاركوننا شغفنا أو يشجعوننا عليه، وننتمي عندما نمر بما يصفه الكاتب المسرحي جورج برنارد شو بأنه «متعة الحياة الحقة»؛ أن نُستعمل في تحقيق هدف، نرى نحن أنه هدف كبير، ولكن فكرة الانتماء غالباً ما تصيبنا بالهلع، لأننا عندما نُجند

أنفسنا لشيء أكبر من مصالحنا الشخصية، نصير أضعف، لأننا نتخلى عن توهم أننا المسيطرون. هذه رحلة لا يمكن فيها ضمان سلامة الطريق.

قد تبدو فكرة رحلة الاستكشاف مثيرة، لكن أغلبنا يفضلها رحلة عمل. فإذا بنا نطلب أجندة تفصيلية حتى نعلم كيف نجهز لها، نريد خط سير محسوم حتى لا نضيع الوقت، ولا نريد أي مفاجآت. ولكن الحذر واجب حقاً إذا قدّم لنا أحد خط سير كهذا، فلن يكون ذاك طريقنا بل طريقه.

ينبغي أن نقبل أن الحياة مخاطرة. وليس بوسع أحد أن يضمن لنا النجاح التقليدي عندما نقفز من فوق سور، أو نجري عبر حقول، أو ننشر أجنحتنا. ولكننا ينبغي أن نتأكد أننا ننضج، وأن الحياة ستكون أكثر ثراءً وأكثر رضا وأكثر عمقاً.

obeikandi.com

نقاط تستحق التفكير

ـ ما الأصوات التي ينبغي أن تتجاهلها؟ هل هي الأصوات التي تحكم عليك في حظيرة البط أم إلحاح

الدجاجة الذي لا يخلو من منطق؟

ـ أي الأفراد أو الفئات يجذبك إليه؟ ومن تحب أن تتعلم منه؟

موضوعات تستحق أن تناقشها مع زملائك

ـ هل جربت السباحة مع البجع؟ ماذا فعلت؟ وكيف كانت تلك التجربة؟

ـ كيف يساعد بعضنا بعضاً للوصول إلى طبيعة البجع الموجودة فينا؟

obeikandl.com